الباب الثانى

أسباب الثورة الفرنسية

الفصل الأول

حالة الشعب الفرنسى قبل الثورة

---

(١) التفرقة بين الطبقات :

كان الشعب الفرنسى ينقسم الى ثلاث طوائف متميزة : (الأولى) طبقة الأشراف . (والثانية) طبقة رجال الدين . (والثالثة) طبقة العامة .

فأما طبقة الأشراف فانها كانت لا تزال تتمتع بكثير من امتيازاتها التى ورثتها عن عهد الأقطاع والتى كانت فى مقدمة ما يشكوه الشعب الفرنسى من آثار العهد القديم . ولقد اطلعت

على كراسة احتجاجات قدمها أهالى منطقة (كاركاسون) الانتخابية الى الملك لويس السادس عشر وضمنوها بيان شكاياتهم المختلفة وليس أفصح من هذا المستند التاريخى فى الدلالة على ما كان عليه الشعب الفرنسى فى ذلك العصر من سوء الحال — وها أنا أنقل اليك ما جاء فى هذه الكراسة لتسمع بأذنك أنةً من تلك الأنات اليائسة التى كانت تذهب أدراج الرياح :

« ان الطبقة الثالثة من منطقة كاركاسون تريد أن تقدم الدليل الثابت على ولائها واحترامها لمليكها المحبوب وأن تتعاون مع الأمة بأسرها فى تدارك النكبات المتعاقبة التى حلت بالبلاد وخيمت عليها منذ زمان بعيداً ملامنها فى احيائها واستعادة مجدها التألد بأن تصرح لجلالتكم أنها على يقين من أن سعادة الشعب مرتبطة بسعادة مليكه وثبات حكومته والمحافظة على النظام والقانون .

ونظراً لما فى تقدير الدين واحترام الحرية المدنية والمحافظة على حقوق الملكية والاستناد الى أساس عادل فى تقدير الضرائب وفرضها واتباع وسائل الاقتصاد فى نفقات الحكومة ، والأخذ بسبل الأصلاح فى جميع فروع الادارة من العوامل التى لا بد من توافرها لصيانة الحكومة الملكية واستقرارها ؛ تتقدم الطبقة الثالثة من منطقة كاركاسون الانتخابية بكل خضوع الى جلالتكم راجية أن

توضع هذه المسائل كلها موضع اعتباركم السامى وتوزن بميزان تقديركم الحكيم لينشرح صدر الشعب بقيام دليل على اهتمامكم بشئونه وتوليكم له بحسن رعايتكم .

« ولما كانت قد صدرت أوامر جلالتكم بوجوب رفع شكاياتنا الى مسامعكم الأبوية وعرض ما يلتمس لها من وجوه العلاج فانا نعتقد أننا نقوم بالواجب علينا حينما نلجأ الى ما يكنه صدركم من العطف والعدل نحو شعبكم بعرض ما يأتى :

(١) ينبغى ألا يقام جهارا من الشعائر الدينية الا ما كان خاصا بالمذهب الكاثوليكى .

(٢) ولكن لا ينبغى أن يكون لذلك أدنى مساس بما لغير الكاثوليك من الحقوق الدينية .

(٣) ينبغى أن يوقف دفع ما هو مفروض على فرنسا للبابا من المخصصات السنوية .

(٤) ينبغى ألا تفرض على الأمة ضريبة الا بعد موافقتها على تحصيلها .

(٥) وأن يوضع نظام معين محدود لانعقاد الجمعية العمومية .

(٦) ولكى يتوفر للطبقة الثالثة ما هو حق لها من الدفاع عن مصالحها ينبغى أن يؤخذ عند الاقتراع على المشروعات بنظرية التصويت الفردى .

(٧) لا حق لطائفة أو جمعية أو فرد فى أن يعفى من دفع الأموال الأميرية بل ينبغى أن يكون نظام الضرائب عاما على الجميع .

(٨) ينبغى أن تلغى القيود التى تحرم أهل الطبقة الثالثة من الحصول على بعض الوظائف والرتب التى تعتبر للآن وقفا على الأشراف وذريتهم . ولابد من صدور قانون يفسح لأهل الطبقة الثالثة طريقاً الى هذه المراكز ما دامت تتوفر فيهم الكفاءة لها .

(٩) نظرا لما بين الحرية الفردية والحرية القومية من الصلة الوثيقة نلتمس من جلالة الملك أن يوقف العمل بنظام (الخطابات المختومة) التى تقضى على الحرية الفردية وترمى إلى السجن بأى إنسان من غير تحقيق ولا محاكمة » .

هذا بعض ما ورد فى تلك الكراسة من المطالب وكل واحد من هذه المطالب يعتبر علاجا لشكاية من شكايات الشعب .

(٢) الخطابات المختومة :

ولكى تقف على تاريخ هذه الخطابات المختومة التى ورد ذكرها فى الفقرة الأخيرة وتعرف مقدار خطرها أورد لك فيما يلى ترجمة

الاحتجاج الذى قدمته إحدى المحاكم الفرنسية للملك لويس الخامس عشر فى شأن رجل اسمه « مونرا » اتهمه جباة الضرائب بالتهريب فحصلوا من الملك على (خطاب مختوم) استعانوا به على إلقائه فى السجن حيث بقى عشرين شهرا ثم خرج فرفع الدعوى على أولئك الجباة يطالبهم بتعويض مالى باهظ نظرا لأنه حبس ظلما لمجرد اشتراكه فى الاسم مع غريم الجباة الذى كان يقصد حبسه . فلما قضت له المحكمة بالمبلغ الذى طلبه احتمى الجباة (بمجلس الملك) فألغى الحكم . فأحدث ذلك فى نفوس الناس ولا سيما المحكمة التى أصدرت الحكم اشمئزازا ترى مرارته فى عبارة الاحتجاج التالية التى وجهتها للملك على أثر هذا الحادث :

« مولاى :

نظرا لما يحول دون قيام هذه المحكمة بواجبها القضائى من العقبات الغير الشرعية والتى لا يمكن أن تصدر عن جلالتكم شخصيا . نرجو أن نرفع بكل خضوع واحترام هذا الاحتجاج .

قبض جباة الضرائب على رجل اسمه « مونرا » من غير مراعاة الأجراءات القانونية التى يجب اتباعها فى مثل هذه الأحوال . وألقى الرجل فى السجن بعد ذلك بقليل حيث قضى عشرين شهرا . وكان ذلك بناء على أمر صادر باسم جلالتكم ولسنا نقدم هذا

الاحتجاج على طول المدة التى قضاها ذلك الرجل فى سجنه ولكن ذلك السجن يشتمل على حفر معتمة أعدت للمجرمين الذين صدر عنهم عفو بعد الحكم عليهم بالأعدام وكان سبب العفو اعترافهم على زملائهم الذين اشتركوا معهم فى جرائمهم . ولعل الدافع الى الحكم عليهم بالحياة فى هذه الحفر هو حملهم على أن يختاروا لأنفسهم الموت راضين بعد صدور العفو عنهم . ولما كان لابد من توصيل شىء من الهواء الى تلك الحفر مع بقائها فى ظلام حالك ركبت فيها أنابيب توصل اليها القليل من الهواء دون أن تسمح بنفاذ شىء من الضوء وكان يشد وثاق أهل تلك الحفر الى جدرانها بسلسلة ثقيلة ؛ ولم يكن يسمح لهم فيها بغير شىء تافه من القش والخبز القفار . ولا شك أنكم ترون جلالتكم أن تهمة التهريب لا تكفى لأن يطرح انسان فى هذا القبر المريع شهرا واحدا .

ولقد روى « مونرا » نفسه — وأيد قوله الشهود — بأنه بعد اخراجه من هذا الكهف الدفين أدخل غرفة أخرى أقل منه ظلاما وقضى فيها زمنا غير قصير . ولقد كان هذا الاحتياط لصالح السجين نفسه فقد دلت التجارب الأليمة السابقة على أن من الخطر البين أن يبعث الأنسان دفعة واحدة من جوف تلك الحفر الى ضوء النهار والهواء الطلق .

فلما خرج مونرا من سجنه رفع الدعوى على الجباة يطالبهم بالتعويض على ما وقع له لاسيما وهو ما برح يؤكد أثناء سجنه وبعد ذلك أنه لم يكن هو المقصود بالسجن ولا شك أن جلالتكم وأنتم تصدرون أمر الحبس لم يكن فى نيتكم أن يبقى المتهم نزيل السجن زهاء عامين حتى تجتمع الأدلة على إدانته .

ومع ذلك فقد جرت عادة الجباة كلما اتهموا إنسانا بالتهريب وأعوزهم الدليل القاطع على إثبات التهمة عليه أن يلجأوا الى استصدار أوامر جلالتكم المعروفة باسم «الخطابات المختومة» لتوقيع العقاب على ذلك البائس .

وهكذا تكون هذه الأوامر التحكمية سبباً فى انتهاك أقدس الحريات ويسير ضحيتها الى قبره وهو لا يعلم من الذى يطارده . فاذا كان يستطيع من يحصل على هذه « الخطابات المختومة » أن يحتمى بجلالتكم من أحكام القضاء فكيف يتسنى لنا يامولاى أن ندعى أننا نعيش فى حماية القانون وتحت ظله لا سيما بعد أن كثر استعمال هذه « الخطابات » وأصبحت تمنح لكافة الأغراض ولاعتبارات شخصية محضة . لقد كان استعمال هذه الخطابات يا مولاى فى بدء الأمر قاصرا على الحالات السياسية وكان من واجب المحاكم اذ ذاك أن تحترمها وترضخ لأحكامها ولكنها لم تلبث

أن تطورت فأصبحت تمنح فى حالات خاصة يتأثر فيها الملك بدموع أسرة تخشى على سمعتها الفضيحة والعار (كما كان يحدث عند ما يلوث بعض الأبناء سمعة أسرتهم بسوء سلوكهم) . أما اليوم فقد أصبحت ضرورة لازمة كلما لحقت بعض ذوى الاعتبارات أية إهانة من أحد العامة كأن ليس لدى هؤلاء (المعتبرين) ما يكفيهم من الامتيازات !

وان كثيرا من هذه الأوامر التى توقعونها جلالتكم تحمل من الأسماء النكرة ما لا يمكن أن يكون قد وصل يوماً الى سمع جلالتكم وذلك لأنها تحت تصرف وزرائكم بل وكتاب وزرائكم أيضاً كما يبدو من كثرة ما يوزع منها . ولا شك أنها أصبحت تصل الى كثير من الأيدى بعد أن رأيناها فى يد الجباة . وفى يد عملائهم ووكلائهم .

والنتيجة يا مولاى أن أحدا من أفراد رعيتكم لن يشعر بانه آمن على حريته مع وجود هذه « الخطابات » اذ من ذا الذى يدعى العصمة من الوقوع يوماً ما فيما يدعو الى غضب بعض الوزراء أم من ذا الذى تبلغ به الضعة أن لا يحتك بكاتب أو عامل من عمال الخراج ؟ سوف يأتى يا مولاى ذلك اليوم الذى ترون فيه من سوء أثر «الخطابات المختومة» ضرورة القضاء على هذا النظام الذى

لا يتفق مع قوانين المملكة وروح الحرية التى يجب أن يتمتع بها رعايا كم . اه (١) .

(٣) حق الصيد :

ولقد تردد على فرنسا فى تلك الفترة سائح انجليزى اسمه أرثرينج (Arthur Young) ووصف حالة الشعب الفرنسى ، وما كان فيه من الجهل والضنك ؛ وحالة بعض البلاد وما كانت عليه من الحقارة والقذارة . وفيما يلى بعض ما كتبه عن حق الصيد الذى كان يتمتع به الأشراف :

كان الملك يمنح أمراء بيته حق الصيد فى ضيعة من الضياع لا هى من ملك الملك ولا هى من ملك الأمير . وكان معنى هذا الحق أنه يصبح محظورا على أى انسان غير هذا الأمير أن تمس يده شيئاً من الصيد الذى يوجد بهذه الضيعة طيرا كان أم وحشا . وكثيرا ما كان ذلك سببا فى تلف الزراعة كما كان أيضاً سببا فى تعمير السجون بأصحاب الحقول التعساء الذين كانوا يقدمون على قتل تلك الحيوانات ابقاء على ما تخرجه الأرض من طعام نزر لهم ولأبناءهم البائسين .

(١) Readings in European History "Robinson"

وكان يتمم هذه الحقوق عدة لوائح توجب على أصحاب تلك الضياع أن يحافظوا على الصيد فكان ممنوعا عليهم تنظيف الحقول وتنقيتها مما ينبت فيها من الحشائش خشية تنفير أفراخ الطير وكان محظورا تسميد الحب خشية أن يكون فى ذلك أذى للطيور وكان لا يجوز قطع البرسيم وغيره قبل موسم خاص كان تأخره يضر بكثير من الحاصلات كما كان لايسمح بتقليع الجذور من الأرض اذا كان بقاؤها ينفع الطيور كمثوى تأوى اليه .

(٤) تعاسة العامة و بذخ الأشراف :

ذلك ما قاله (يونج) عن حق الصيد . ودونك ما قاله أيضاً عن باريس ووصف شوارعها فى سنة ١٧٨٧ :

« ان هذه المدينة العظيمة هى آخر مدينة تصلح للاقامة فيها بين كل المدن التى زرتها . فالطرقات غاية فى الضيق . وكثير منها شديد الازدحام وتسعة أعشارها قذر وكلها من غير إفريز يسير عليه المارة فى راحة واطمئنان والمشى الذى يمتاز فى مدينة لندن بأنه لذيذ نظيف حتى ان السيدات يخرجن للتروض به كل يوم هو فى هذه المدينة عناء ومشقة تثقل كاهل الرجال . أما السيدات فمن المستحيل أن تقدم منهن واحدة على هذه الرياضة وعليها ثوب

نظيف . والعربات كثيرة العدد ولكن ما هو شر من ذلك كثرة العجلات ذات الحصان الواحد التى يسوقها (فتيان العصر) كالمجانين ، بسرعة مزعجة تجعل عابر السبيل فى خطر محقق . ولقد شاهدت بعينى احدى هذه العجلات تدهس صبيا وربما تكون قد أزهقت روحه .

أما عن نفسى فقد كثر ما أصابنى من رشاش الوحل الذى ترمى به هذه العجلات » اه .

وليس أفكه بعد هذه الصورة القذرة من أن أقدم لك رسالة كتبتها (مدام دى سيفينى) تصف فيها سويعات من زيارة قام بها الملك لويس الرابع عشر لقائده العظيم (أمير كوندى) فى (شانتيلى) كيما ترى الفرق بين حياة الطبقتين . حياة العامة . وحياة الأمراء وعلى رأسهم الملك :

« .... وكان الطريق مفروشا بزهر النرجس ، وسار كل شىء على مايرام . ثم جاء العشاء ولم يكف الشواء نظرا لحضور ضيوف لم يكن يتوقع أحد حضورهم ، فطار لذلك لب (فاتيل) — أمير الطهاة — ولقد سمعته يصيح أكثر من مرة . (لقد قضى على شرفى ولن تقوى نفسى على احتمال هذه النكبة) وسمعته يقول (لجورفيل) « أحس بمخى يسبح فى جوف رأسى . لم أنم منذ اثنتى عشرة ليلة ،

ساعدنى فى تنفيذ أوامرى » . فواساه جورفيل بأرق الحديث ، ولكن الشواء الذى لم يقدم على المائدة — لا مائدة الملك ولكنها المائدة الخامسة والعشرون — كاد يذهب بعقله .

وحمل جورفيل الخبر إلى القائد الأمير . فذهب (كوندى) إلى غرفة (فاتيل) الخاصة وقال له : « كل شىء على ما يرام يا فاتيل . ولا شىء أحسن من عشاء الملك هذا المساء » . فأجابه شيخ الطهاة :

— « يا مولاى إن رقتك تخبلنى . إنى أعرف ان الشواء لم يقدم على مائدتين ! » .

— « لا شىء من ذلك يا رجل ! لا تزعج خاطرك . أن كل شىء على ما يرام ! » .

وانتصف الليل ، ولم تنجح الألعاب النارية لأن سحابة ظللتها (وكانت تكاليف هذه الألعاب ١٦,٠٠٠ فرنكا) وفى الساعة الرابعة صباحا كان فاتيل حائرا حائما يجول فى كل مكان والناس جميعا فى سبات عميق . فالتقى بمتعهد صغير ومعه حملان من السمك فسأله : أهذا كل شىء ؟ فأجاب الرجل : نعم يا سيدى ! ولم يكن يعرف أن فاتيل أرسل الى جميع الموانى الفرنسية فى طلب السمك لوليمة الملك . وانتظر فاتيل قليلا ولكن لم يرد من المتعهدين الآخرين

أحد . فاضطربت أعصابه وظن أنه لن يحصل على غير ما حمل اليه هذا المتعهد من السمك . والتفت بجورفيل فقال له . « لن أستطيع الحياة يا سيدى بعد هذا الخزى العظيم » . فضحك من كلامه جورفيل . غير أن فاتيل صعد الى غرفته ووضع سيفه فى الباب ثم أقبل عليه بصدره فأغمده فيه . ثم خر على الأرض قتيلا !

وفى خلال ذلك كان السمك يتوافد من كل فج والناس يبحثون عن فاتيل لتوزيعه . فصعدوا اليه فى غرفته وطرقوا بابها ثم كسروه فوجدوا المسكين غارقا فى دمه ، فأرسلوا الى الأمير فتملكه اليأس وحمل الخبر الى الملك العظيم وهو يقطر حزنا . واتفق الجميع على أن المأساة ترجع الى أن مستوى الشرف الذى كان يعمل فاتيل بمقتضاه كان من السمو بمكان وامتدحوا شجاعة الرجل ! وان كان لم يخل من لومهم اياه . وقال الملك انه أخر موعد هذه الزيارة خمس سنوات لعلمه بما سوف تحدثه من المشقة الهائلة ثم قال للأمير انه كان ينبغى عليه أن يعد مائدتين اثنتين دون أن يثقل كاهل نفسه بحمل مسئولية كل انسان وانه لن يسمح للأمير بأن يفعل ذلك مرة أخرى ! ولكن هذه التدبيرات جاءت متأخرة جدا بالنسبة لفاتيل المسكين !

على أن جورفيل حاول أن يسد مسد فاتيل ونجح فعلا فى ذلك

فكان الغذاء فاخرا ، ولذلك كان العشاء . ولقد قام الجماعة فمشوا ولعبوا وخرجوا للصيد . وكانت رائحة النرجس تملأ الجو ، وكان كل شيء على ما يرام ! » اه (١) .

هكذا كان الفرق جسيما بين حياة الطوائف فى فرنسا . فالأمراء والملوك فى كظة متخمة والعامة من تحتهم فى مخمصة مؤلمة . وهكذا كان يعيش أهل الطبقة العليا على لحوم الطيور المغردة ، ويسيرون على أوراق الزهر الناضرة بينما كان أهل الطبقة الدنيا يعيشون فى بيوت كأوجار الكلاب لا مداخن لها ولا نوافذ . ويخطرون فى أسمال بالية لا شبيه لها إلا صبرهم الممزق النافد مما هم عليه من سوء الحال !

(٥) الفوضى العامة وفوضى الضرائب :

وخلاصة القول أن فرنسا لم تكن تشكو فى سنة ١٧٨٩ فساد النظم فيها ، ولكنها كانت تشكو عدم وجود شيء من النظم . كانت تشكو الفوضى فى كل شيء ، الفوضى فى الحكومة حيث كان للبلاد مجلس نيابى ولكنه لا يجتمع ، والفوضى فى المجتمع حيث كان الأشراف يتمتعون بامتيازات عهد الاقطاع ولا يقومون بشيء من

(١) *Readings in European History* (Robinson)

لويس الرابع عشر

عمل أمراء الاقطاع ، والفوضى فى الضرائب حيث كانت تجبى من فريق دون فريق وتجبى فى أوقات لا يعرفها الا الجباة ، وبمقاديرهم الذين يقدرونها حسب أهوائهم ، والفوضى فى القوانين حيث كان لكل ولاية قانونها الخاص الذى يخالف قانون جاراتها ، والفوضى فى التجارة حيث كانت تجبى الرسوم والجمارك على السلع التى تنتقل من ولاية الى أخرى كما لو كانت خارجة من حدود البلاد كلها أو داخلة اليها .

على أن أقسى صنوف هذه الفوضى كانت فوضى الضرائب ، فقد كان توزيعها غاية فى الظلم وسوء التدبير ؛ كان الأشراف يملكون نصف أرض فرنسا تقريبا وهم لا يزيدون عن ٣٠٠,٠٠٠ بينما كان النصف الثانى ملكا للشعب وعددهم يربو على ٢٥ مليونا . ومع ذلك فكان الأشراف لا يدفعون شيئا من الضرائب على أرضهم فى حين كان يدفع الفلاح ضريبة ثقيلة فادحة عما يملك . ولقد كان الفلاح يدفع هذه الضريبة على عقاره ويدفع ضريبة غيرها على الملح اسمها (جابيل) وكانت الحكومة تحتكر بيع الملح فى ذلك الوقت وتفرض على كل انسان أن يشترى منه قدرا معلوما كل عام سواء أكان فى حاجة اليه أم لا حاجة له به . وكان الثمن على الرغم من تحديد الحكومة له يختلف باختلاف

الأقاليم . فأقبل الناس على تهريبه من جهة الى أخرى وكانت تمتلىء السجون بمهربيه من جراء ذلك . وليت الأمر كان قاصرا على ذلك ولكن كان على الفلاح أن يدفع ضريبة ثالثة للكنيسة ، وضريبة أخرى للشريف . ولقد قدر أن الفلاح كان يدفع من كل مائة فرنك تصل الى يديه ٥٣ فرنكا للحكومة و ١٤ للكنيسة و ١٤ للشريف ، والتسعة عشر فرنكا الباقية هى التى كانت تترك فى يد المسكين لسد حاجاته وحاجات أهله (١) .

ولكن مهما يكن من بؤس الفلاح الفرنسى فلا شك أنه كان أحسن حالا من أمثاله فى البلاد الأخرى عدا انجلترا وانما قامت الثورة فى فرنسا دون تلك البلاد للأسباب الآتية :

(أولا) لما امتازت به النفسية الفرنسية من الخفة وسرعة التأثر . ولتوفر عوامل الثورة الأخرى فى فرنسا (سوء تصرف الحكومات الماضية ، وهبوط سمعة الملكية ، وتأثير الكتاب والمفكرين ، وسريان عدوى الثورة الأمريكية الى فرنسا عن طريق المتطوعين الذين اشتركوا فى حرب تحرير أمريكا ؛ وغير ذلك من الأسباب التى سنفصلها فى الصفحات التالية) .

(وثانيا) لأن ما كان يتمتع به الشعب الفرنسى من الرفاهية

(١) تاريخ القرن التاسع عشر للاستاذين قاسم وحسنى .

النسبية فى عهد لويس السادس عشر ووزرائه الأول المصلحين أثار فى النفوس الرغبة فى المزيد فلم يكد يتنفس الشعب الصعداء بعد لويس الخامس عشر ويتذوق طعم الحرية والاصلاح فى بدء حكم لويس السادس عشر حتى قويت رغبته فى الحصول على حقوقه كلها كاملة غير منقوصة . وقديما قيل :

« ان الطعام يقوى شهوة النهم »

الفصل الثانى

حكومة فرنسا قبل الثورة

(١) لويس الرابع عشر يستنفد موارد بلاده :

لقد بينا فى الكلمة التى كتبناها عن نظام الاقطاع أن حكومة فرنسا ظلت تحت تأثير هذا النظام عصرا طويلا كانت السلطة فيه موزعة بين الأمراء ؛ وأن لويس الحادى عشر تمكن من أن يرد على الملكية شيئاً من هيبتها الضائعة . ولكن فرنسا بقيت تمزقها الانقسامات الدينية زمناً طويلا ، وليس فى الناس من لم يسمع بكاترين دى مديتشى أرملة هنرى الثانى ملك فرنسا وما وقع فى عهدها من الحوادث الفظيعة التى سببها تعصبها الشديد للكاثوليكية وعداؤها للهيجونوت (البروتستانت) وأخص هذه الحوادث بالذكر مذبحة سنت برثلميو سنة ١٥٧٢ التى قضى فيها ما لا يقل عن ٢٠,٠٠٠ بروتستانتى

وبقى مركز الملكية فى فرنسا من جراء تلك القلاقل مزعزعاً غير ثابت حتى أدركه هنرى الرابع سنة ١٥٨٩ فعمل على تثبيته

الذى أنهك قوى البلاد ، وسلك فى مناوأته للاشراف طريقاً فعالا عنيفاً سار على أثره فيه ريشليو ومزران فمهدا بذلك للويس الرابع عشر أحسن تمهيد حتى أنه لما استقل بالأمر كان لا يرتفع فى فرنسا كلها صوت الى جانب صوته ولا يعلو فيها رأس أمام عظمته ، عنه وحده يصدر كل رأى نافذ واليه وحده يرجع الأمر كله . ولا شك أن هذا الملك العظيم آنس كل هذه القوة فى نفسه وعرف مقدار سلطانه وبأسه حين قال : « الحكومة ! انى أنا الحكومة ! » بل انه كان فوق ذلك كثيراً . انه كان الروح المحركة للسياسة الدولية فى عصره حتى ليسمى تاريخ القرن السابع عشر كله بعصر لويس الرابع عشر .

ولكن لا ينسى المؤرخ وهو يصور عظمة لويس الرابع عشر ويبين كيف ارتفعت سمعة الملكية فى عهده أن يصور كذلك مجهود الشعب الفرنسى التعس وهو يحاول تغذية كبرياء هذا الملك العظيم واشباع أطماعه المنهومة ، وأن يبين كيف قبضت يد لويس الحديدية على فرنسا وهى غصن أخضر وضرع درار ، فخلفتها بالاسراف وكثرة الحروب عوداً يابساً وعيناً ناضبة

لقد نجح لويس العظيم فى أن يجعل باريس عاصمة أوربا وأن يملأ اسمه فراغ القرن السابع عشر بأكمله ، ولكنه لم يحصل

على ما حصل عليه الا بدم شعبه وأمواله ؛ فلم تلبث تلك الجذوة الوهاجة التى أضرمتها أنفاسه القوية أن استحالت بعد موته رمادا ولم يلبث ذلك الملك الواسع الذى كان يسنده عاتقه العريض أن انهار واستحال أنقاضاً

(٢) لويس الخامس عشر :

يقضى على سمعة الملكية

بينا كيف كانت فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر فى حالة يرثى لها وكيف كانت تئن أنيناً مفجعاً تحت تأثير جراحها المنهورة، ولكن أناتها ضاعت وسط أناشيد النصر الذى أحرزه لويس ، وجروحها اختفت تحت أكاليل الغار التى غمرتها بها يداه . بيد أن الدهر دار دورته وانقضت أيام لويس العظيم فمات ودفن ، ودفنت معه أناشيده وأكاليله، وانكشفت فرنسا الكليمة المسكينة على حقيقتها بين يدى لويس الخامس عشر ، فاذا هى أضيع تركة وقعت لأعبث وارث؛ فانه لم يكن يفكر الا فى نفسه وفى خليلاته وقضى عمره فى عبادة شهواته ، وترك الملك لعشيقاته يدرنه كما شاءت أهواؤهن المتقلبة

ولقد انهارت السلطات المعروفة كلها فى عهد هذا الملك الخليع فالملكية التى كانت عالية الرأس أيام لويس الرابع عشر والتى

بما أوتيه من الحزم وأصالة الرأى فقضى على عوامل النزاع الدينى اجتمعت فى يدها كل السلطات تراخت وانتكس رأسها فى عهده ولم يبق للملك أية سلطة على أحد من رعيته السابقة اللهم الا رجال صيده وخيله . وانحصرت فى هذا الوسط الضئيل دائرة عمله حتى لقد كان يقال عنه يوم لا يخرج للصيد : « ان جلالة الملك لا عمل له اليوم »

والكنيسة التى كان يصغر أمامها كبرياء الملوك والتى كان لها من السلطة ما جعل أحد العواهل العظام يقف تحت الثلوج بملابس التكفير ثلاثة أيام سوياً وهو عارى القدمين أصبحت اليوم تغتبط أن ترتمى فى أحضان تلك الملكية المتداعية لتستمد منها النفوذ

والفرسان من الأشراف الذين كان لهم من النفوذ ما يهز قوائم العرش تحت أقوى الملوك فى الأجيال الماضية أصبحوا مشردين يأبى عليهم الملوك أن يتخذوا سروجهم وسيوفهم مرتزقاً لهم ، وانزووا فى ساحات البلاط الملكى ولاذوا بكنفه وباتوا بعد حياة البطولة والشهامة يتنافسون فى ميادين الذلة والملق لينالوا الحظوة عند صاحب العرش(١)

(١) French Revolution. (Carlyle.)

(ب) الكتاب والمفكرون يكوّنون فى ظل غفلته رأيا عاما مستنيرا

ولكن ان تكن هذه السلطات قد انهارت فقد قامت على أنقاضها سلطات أخرى تتفق مع روح العصر وحاجاته ؛ فهناك قامت سلطة رجال القانون الذين نسجوا فيما بعد للثورة شرائعها ووضعوا قوانينها ، وهناك قامت سلطة رجال التجارة الذين تحكموا بأموالهم فى مستقبل البلاد ، وهنا لك قامت كذلك سلطة أخرى كانت أقل السلطات ظهورا ولكنها كانت أبعدها أثرا ؛ تلك سلطة رجال الأقلام الذين خلقوا بكتابتهم فى فرنسا رأيا عاما . كانت أولى صفاته التشكك وعدم اليقين واتهام كل ما أحاط به من النظم بالفساد .

ولقد رأيت مثالا من كلام هؤلاء الكتاب فيما أوردته لك عن روسو ونظرياته السياسية ولا يفوتنى هنا أن أذكر لك أسماء فولتير ، ومنتسكيو ، وديدرو ، ودالمبير ؛ لتعرف أى الأقلام تلك التى حملت لواء الديمقراطية أمام دول الأرض وسارت بالقافلة التى تبعتها ذلك الشوط البعيد .

فأما فولتير فهو تلك القوة الهائلة التى كان يرهبها كل ذى سلطان فى القرن الثامن عشر ، نشأ فى أواخر أيام ملك فرنسا العظيم لويس الرابع عشر فلفت نظره ذلك السلطان الواسع وأنانية صاحبه الى حد مصادرة كل من يجرؤ على ادعاء شىء من السلطة سواه ؛ كما لفت نظره سلطان رجال الكنيسة وتعصبهم لمذهبهم الى حد تعذيب كل من يجرؤ على اعتناق أى مذهب آخر فسخر من هذه العظمة المزيفة التى تقوم على القهر واستهزأ بأصحابها وجعل دأبه مناهضة هذا السلطان الغشوم المستبد ، وبدأ حياته وهو فى العشرين من عمره برسالة عرض فيها بالكنيسة ولويس الرابع عشر وكان جزاؤه عليها بضعة أسابيع قضاها فى سجن الباستيل ؛ ولكنه خرج بعد هذه الأسابيع القليلة وقد كتب على نفسه عهدا أن يجعل مواهبه وقفا على هدم تلك الأسوار التى تَحَجَّبَ من ورائها رجال الكنيسة والملك وجعلوا يرمون من خلفها صواعق نقمتهم على أعدائهم ؛ وأصبح فولتير فى عصره (رسول التسامح والاصلاح) ولكن كان للتسامح عند الكنيسة اسم آخر هو (الالحاد) وكان للاصلاح عند الملوك اسم آخر هو (الثورة) ؛ فعاش فولتير فى نظر السلطات (ملحدا ثائرا) ولاقى منهم ما أعدوه من العذاب للملحدين الثائرين . ولكنه عاش كذلك فى

نظر الناس فيلسوفا حرا ولاقى منهم ما أعدوه من التعظيم والتقدير للفلاسفة الأحرار!

ولكى ترى مثالا من حملاته على رجال الدين وتقف على وجهة نظره فى الاصلاح ، أقتبس لك شيئا مما كتبه تحت كلمة « قانون » فى قاموس فلسفى صغير نشره سنة ١٧٦٤ :

[— كل ما هو خاص بالزواج ينبغى أن يرجع فيه الى السلطة المدنية ، وليس على القسيس الا أن يبارك الزوجين

— ينبغى أن يخضع القسس للحكومة لأنهم أفراد من الرعية التابعة للدولة .

— ليس فى مقدور القسس أن يحرموا أى انسان شيئا من حقوقه بدعوى أنه خاطىء ، فان القس بحكم كونه حتما من الخاطئين ينبغى أن يقصر عمله على الاستغفار للخاطئين دون أن ينصب نفسه لمحاكمتهم .

— ينبغى على الموظفين والعمال والقسس جميعا أن يشتركوا فى دفع الضرائب للدولة لأنهم جميعا أفراد فيها .

— ليكن عقاب المجرمين نافعا ؛ ان الرجل الذى يشنق لا يصلح لشىء ، أما الرجل الذى يحكم عليه بالأشغال الشاقة فانه يظل خادما لبلاده ويبقى مثلا حيا يتعظ به الناس .

— ينبغى أن يكون القانون واضحا عاما دقيقا ، فان آفة القوانين تفسيرها .

— لاينبغى أن تجبى ضريبة الا اذا روعى فيها أن تتناسب مع موارد الشخص الذى فرضت عليه]

غير أن ڤولتير لم يكن فيلسوفا جافا كما اعتاد غيره من الفلاسفة أن يمتازوا بالجفاف ، ولكنه كان ظريفا فكها خفيف الروح فى كلامه بحيث تنفتح له الآذان وتنشرح لوقع ملاحظاته الصدور وكانت هذه الخاصة فى أسلوبه أقوى دعامة قام عليها نفوذه الهائل وتأثيره العظيم .

وأما منتسكيو فقد طاف كزميله ڤولتير بجميع الدول الأوربية ثم استقر فى فرنسا ووضع كتابه الذى أسماه (روح القوانين) . وقد جمع فيه تواريخ أنظمة الحكومات وأنواعها وعدد مساوئ كل منها ومحاسنه ونصح أخيرا بوجوب اشتراك الملك مع الأشراف والعامة فى حكم البلاد على مثال الدستور الانجليزى .

وأما ديدرو ودالمبير فقد تعاونا فى وضع دائرة المعارف الفرنسية التى كان لها أعظم أثر فى نشر العلوم وتثقيف الأذهان واعدادها لفهم المشكلات .

لويس الخامس عشر

(٣) مارى انتوانت ولويس السادس عشر :

(١) زوجين

نقول مارى ولويس ، وكان حقاً أن نقول لويس ومارى لولا أن الأميرة كانت صاحبة اليد العليا فى هذه الشركة وأنها ما لبثت أن غادرت أمها مارية تيريزا أمبراطورة النمسا ودخلت البلاط الفرنسى عروساً لولى عهد فرنسا لويس السادس عشر حتى جعلت زوجها تابعاً لها وفرداً من أفراد حاشيتها ؛ فلما انقضت ايام جده الفاجر لويس الخامس عشر ودوت فى أرجاء القصر تلك الصيحة القديمة « مات الملك فليحى الملك » .. تقدمت هى على زوجها وتولت عنه حكم الشعب الفرنسى وأصبحت منذ ذلك الحين القوة المحركة لسياسة فرنسا والعامل الأكبر فى وقوع ما ألم بها من الخطوب ؛ فهى التى تولت انتخاب سلسلة الوزراء الذين تعاقبوا فى مستهل حكمها لعلاج الأزمة المالية التى كانت تشكوها البلاد ، فلم يفلحوا وفتحوا للشعب بتناقض سياستهم سبيل التمرد والثورة؛ وهى التى عينت (نكر) وزيراً ثم أقالته ثم استرجعته؛ وهى التى أشارت باتباع وسائل القمع لمقاومة الجمعية العمومية بعد اجتماعها الأول ؛ وهى التى أشرفت على فكرة فرار الأسرة المالكة من فرنسا ؛ وهى التى رسمت الخطط بعد فشل هذه الفكرة لتحريض

حكومات أوروبا على رجال الثورة ؛ وهى التى أوحت بما هو معروف فى التاريخ « بتصريح برنزويك » ، وأوعزت بتهديد باريس بالتخريب والتدمير اذا لم يعمل رجال الثورة على اعادة الحال الى ما كانت عليه قبل الثورة (١) .

ولكن لندع الخوض فى هذا الحديث الآن ولنعد قبل الاسترسال فيه الى طفولة مارى أنتوانت لنرى كيف نشأت ولنعرف أى الظروف تلك التى جعلتها ملكة على فرنسا لتلقى حتفها على يد ذلك الشعب الذى اختارت أن تحكمه .

كانت مارى انتوانت ابنة ماريه تيريزا امبراطورة النمسا ، وكانت النمسا فى ذلك الوقت على رأس الدول الأوروبية فى عظمتها وسلطانها ، وكانت لا تزال مصائر الشعوب رهن ارادة الملوك العظام وكان التملك عليها موضوع أحلام بنات القصور العريقة ؛ فجلست مريه تيريزا تداعب ابنتها يوما بسؤالها عن الشعب الذى تطمح الى التملك عليه ، فأجابتها مارى انتوانت أريد أن أحكم الشعب الفرنسى الذى حكمه هنرى الرابع ولويس الرابع عشر .

(١) (French Revolution). (Bellock.)

ماری انتوانت

وشاءت الأقدار أن تتفق هـــذه الأمنية مع سياسة لويس الخامس عشر الذى أراد أن يتخذ النمسا حليفة لفرنسا ضد بروسيا عدوته ، فلم ير وسيلة لتحقيق ذلك خيرا من تزويج حفيده وولى عهده من الأميرة النمساوية الشابة فبعث الى سفير فرنسا فى النمسا يستشف رأيه فى امر هذا القران فجاءت اجابة السفير باعثة على أشد الاطمئنان والارتياح حيث قال فى معرض حديثه عن الاميرة :— « انها كاملة الجمال من خلق ومن خلق ، ذات ذكاء نادر وخلال ساميـة تفيض نفسها الشابة غبطة وابتهاجا وطربا وهى ميالة الى الحصول على رضاء الناس ، وفيها من الخصال التى تكفل سعادة الزوج أبدعها وأوفرها » .

فسر الملك الشيخ لهذا التوافق ولم تنقض على ذلك الا أسابيع معدودة حتى أعلنت الخطبة رسميا ، ثم جاء موعد الزفاف وسافرت الاميرة الى زوجها ، ووصل موكبها الفخم الى ستراسبورج فى اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٧٧٣ حيث استقبلها عظماء البلاط الفرنسى : ومن ثم سار الموكب الى فرساى بين الهتاف المتواصل والحفاوة البالغة . وفى ١٦ مايو سنة ١٧٧٣ احتفل بعقد الزواج ، وظلت الحفلات والمراقص قائمة أياما عديدة الى أن انتقلت الأميرة الى باريس فى ٨ يونيه بين أفخم مظاهر الهتاف والترحيب .

ولقد كان من تأثير الاميرة بتلك الحفاوة التى لاقاها بها الشعب الفرنسى أنها كتبت الى أمها تقول : «لست أستطيع أن أصف لك يا أمى العزيزة مظاهر السرور والعطف التى أغدقت علينا ولقد كنا نصافح الشعب بأيدينا ، وكان ذلك من أعظم بواعث السرور وما أسعدنا اذ نستطيع أن نحصل على حب العشب بذلك الثمن البخس ! ومع ذلك فليس ثمة أنفس من هذا الحب ؛ لقد شعرت بهذا ولن أنساه قط » .

والواقع أن تلك الأميرة الخلابة استطاعت أن تمكن لنفسها فى نفوس الفرنسيين بما كانت عليه من المحاسن والظرف وساعدها على ذلك ما هو معروف عن ذلك الشعب من تمجيده لتلك الخلال وتأثره بالمجاملة ورقة الشمائل .

واستطاعت الأميرة كذلك أن تفتن رجال البلاط ونساءه وأصبحت فى منزلها الجديد موضع عطف الجميع واعجابهم

غير أن ذلك الفوز الباهر لم يلبث أن أثار الغيرة فى صدور الحساد أمثال (مدام دى بارى) خليلة الملك لويس الخامس عشر وغيرها فأخذوا يدسون لها الدسائس وساعدتهم هى بتصرفاتها الطائشة ؛ فانها على الرغم من كل ما عرفت عنها كانت لا تخلو من نقائص تشوب خلق أمثالها المدللات فكانت متشعبة الأهواء

ماری دی باری

متقلبة النزعات ، وكانت تصغى أحيانا الى نداء أهوائها المجردة ؛ وقد وفدت على بلاط يموج بالرذيلة والخلال الفاسدة وهى طفلة لا تحسن خوض هذه الغمار الخطرة فكانت هذه الخفة من جانبها سببا فى إثارة عاصفة من الأقاويل والمفتريات حول سيرها وتصرفاتها ؛ وهى عاصفة لم تلبث أن جازت القصر الى الخارج ، وهبت بين طوائف الشعب تحمل ضروبا شتى من الاتهام والقذف ، وكانت سببا فى ازدياد سخط العامة على الملكية وأهلها كما ستراه مفصلا فيما يلى من الحوادث .

تلك كانت مارى انتوانت (١) ولم يكن أليق لها من زوجها ولى عهد فرنسا ، فانه لم يكن يسع نقائصها هذه الا صدره السمح الواسع ، ولم تكن تطيق سمعتها المثلوبة غير أذنه الثقيلة القليلة الاكتراث ، ولا كان يحتمل حدتها العنيفة مثل طبعه البارد البليد . لقد كانت الاميرة كثيرة الزهو شديدة الكبرياء ميالة الى الغزل واللهو فكان لا بد لها من الأصدقاء ، وكان لا بد لها من التلهى ، وكان لا بد لها أيضا من زوج ضعيف هادئ ينكسر على لين طباعه شذوذها ، ولكن الطبيعة حابتها الى النهاية القصوى فى منحها هذا الزوج الممتع الذى لم يخلق لغيرها ، فانه فضلا عن

(١) قضايا التاريخ الكبرى للاستاذ عنان .

كل ما وصفناه لك به كان ذا ميزة عظيمة أخرى ؛ ربما كان من عدم اللياقة التاريخية ذكرها والافصاح عنها ولكن يكفيك أن تعلم أنه عولج من ذلك المرض وأنه استطاع أن يعاشر زوجته معاشرة الأزواج للمرة الأولى بعد سبع سنوات من زواجها ! ولقد بقى ذلك (الرجل المسكين) كما كانت تسميه الأميرة متأثراً طول حياته بتلك الحالة التى كان عليها فى مستهل شبابه ولعلها تفسر كثيراً من طباعه التى اشتهر بها كعدم ثقته بنفسه ، وسهولة انقياده لغيره ، وأخذه بكل يد تمتد له ، وتقلبه تبعاً لارادة كل ناصح ومشير (١)

بقيت مارى مع زوجها على هذه الحال حتى مرض جده الشيخ مرضه الأخير فى أواخر أبريل سنة ١٧٧٤ ثم وافاه أجله المحتوم فى العاشر من شهر مايو سنة ١٧٧٤ فهرعت الجموع الى القصر الملكى للتهنئة والتعزية ، وأقبل الشعب المضنى يحيى العهد الجديد بعد أن ذاق فى العهد الماضى صنوف الذلة والارهاق . وأقبلت مارى انتوانت ويدها فى يد زوجها فخرا على ركبتيهما داعين « اللهم سدد خطانا وتولنا بحمايتك فاننا سنحمل أعباء الحكم صغيرين جداً » !

(١) الثورة الفرنسية (بلوك)

« اللهم سدد خطانا ! سنتولى الحكم صغيرين »

ولقد كانا حقاً صغيرين فان الملك كان فى العشرين من عمره أما الملكة فانها كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ولم تك بعد بلغت هذه العشرين

(ب) مارى انتوانت ولويس السادس عشر

(ملكين)

انقضى بموت لويس الخامس عشر دور ولاية العهد وأقبل دور الملك والسلطة ، انقضى دور العبث وجاء دور الجد ، وانقضى دور الخلو وجاء دور المسئوليات ولعل خير مايصور لك نفسية الملكين الشابين فى هذه الفترة ما كتبته الملكة لأمها فى الرسالة التالية

شوازى فى ١٤ مايو سنة ١٧٧٤

سيدتى وأماه العزيزة :

لا شك أن الكونت (ميرسى) —[سفير النمسا الذى اختارته مارية تيريزا ليكون مستشاراً لابنتها الصغيرة فى فرنسا] قد أخبرك بتفصيل ما جرى فلقد ظل الملك حافظاً لشعوره الى آخر لحظة من عمره وكانت خاتمة حياته عبرة لمن شاء أن يعتبر ، ويخيل

الى أن الملك الجديد قد استولى على قلب الشعب فانه قبل وفاة جده بيومين قام بتوزيع مائتى ألف فرنكا على الفقراء وكان لذلك أحسن الأثر ؛ وهو منذ وفاة الملك يعمل من غير انقطاع ويجيب بخط يده على ما يكتبه له وزراءه الذين لم تتح له الفرصة لرؤيتهم بعد . وهو يرد كذلك بنفسه على رسائل كثيرة أخرى ومما لا شك فيه أنه يحب الاقتصاد وأن أقصى همه أن يوفر أسباب الرفاهية لشعبه وليس يوازى اهتمامه بالتعلم إلا رغبته فى الاستفادة . وإنى أسأل الله له فى ذلك كل توفيق

وإن الجمهور ليتطلع الآن الى كثير من التغييرات ولكن الملك اكتفى بأن أرسل مدام دو بارى (محظية جده لويس الخامس عشر) إلى الدير وأن طرد من بلاطه كل من له اتصال بها

ولقد منعت من أن أزور عمتى أديلايد لأنها تشكو الحمى وألماً فى وسطها ويخشون أن تكون قد سرت اليها عدوى الجدرى وهى تقوم بتمريض الملك الفقيد

ولقد خولنى الملك من السلطة بوصف كونى ملكة ما أستطيع معه أن أملأ جميع المراكز الخالية فى حاشيتى

وإنى وإن كان الله قد من على بأن أولد لأشغل هذا المركز الذى أشغله اليوم لا أتمالك أن تتولانى الدهشة حينما أرى المقادير

تختار صغرى بناتك لتجلس على أجمل عروش أوربا وانى لأحس أكثر من قبل بكل ما أنا مدينة به الى عطف والدتى العظيمة التى تجشمت كل صعب فى سبيل احراز هذا لى . وما أحسست يوماً بما أحس به اليوم من الرغبة فى أن أطرح نفسى على قدميها وأن أقبلها وأكشف لها عن نفسى لترى الى أى حد هى مفعمة بالاجلال والحب وعرفان الجميل .

حاشية بخط الملك

انى لميلأنى السرور أن تتاح لى الفرصة يا أمى العزيزة لأعرب لك عن حبى واخلاصى ، ومن لى بنصحك الغالى فى هذه الأيام العصيبة ! وانى لأرجو أن أوفق الى ما فيه رضاؤك لأقيم من ذلك دليلا على مبلغ ما أنا مدين لك به من الشكر على إنعامك على بابنتك التى لا أطمع فى سعادة وراء ما أنا متمتع به معها .

خاتمه الرسالة بخط الملكة

لم يرض الملك أن أبعث اليك برسالتى دون أن يخط لك فيها كلمة بنفسه وانى لموقنة أنه كان يحب أن يكتب لك رسالة كاملة ولكنى أرجو أن يكون له عندك بعض العذر نظراً لكثرة مايقوم

به من الأعمال بله ما فى طبيعته من الخجل والحياء الشديد . وانك لترين يا أماه مما ختم به عبارته أنه على الرغم من شدة محبته لى حريص على ألا يغدق على من الثناء الفاتر ما تمتلئ به نفسى غرورا (١) .

هكذا بدأ هذان الشبان حياتهما الملكية ! رغبة خالصة من الملك فى الاقتصاد وتوفير أسباب الرفاهة لشعبه ومعاونة قوية من الملكة فى تحقيق هذه الغايات .

ولكن ضعف الملك واستسلامه أفسحا الطريق أمام المتطفلين على موائد الحكم فلم يلبث أن دخل فى ميدان العمل وزراء منافقون أنانيون ، وكمنت فى زوايا القصر الملكى حاشية نفعية رجعية ؛ ثم غشى الجميع شعب جائع هائج فاختلط فى المعمعة الحابل بالنابل ، وانفجرت الفتنة على رأس الجميع .

ولكن عند انفجار الثورة لم يكن يفكر رجالها فى الوصول الى ما وصلوا اليه أخيرا ، وانما جاءهم ذلك عرضا ، وكانت كل خطوة يخطونها تسوقهم الى التى تليها وهكذا ؛ فلم يكن أحد منهم يفكر مثلا فى أول الأمر أن يغير نظام الحكم الملكى و يستبدل به نظاما

(١) Readings in European History. (Robinson)

جمهوريا ، ولكنهم كانوا يريدون أن ينشئوا حكومة حرة تحت لواء الملكية وكانوا يريدون تنظيم الملكية لا تحطيمها ، ولم يكن يسعى احد الى استدعاء طبقات الشعب الجاهلة للاشتراك فى حياة البلاد السياسية ، ولكن مبدأ سيادة الأمة الذى كان يبشر به الفلاسفة والكتاب هو الذى أدى الى نشر روح الديمقراطية وصب الحكومة فى ذلك القالب الجمهورى الذى هو الصورة الطبيعية لنظام الحكم الديمقراطى .

obeikandl.com

الفصل الثالث

موقف الطبقات حيال حركة الاصلاح (١)

لقد كان لكل طائفة من طوائف الأمة موقفها الخاص حيال حركة الاصلاح التى بدأها لويس السادس عشر.

فأما الأشراف والاكليروس فكان جلتهم يريدون الاستمساك بالنظم العتيقة محافظة منهم على امتيازاتهم وحقوقهم ، وهؤلاء كانوا عامل السوء وعنصر الرجعية ونذير الشؤم والخراب الذى حل بالبلاد . ولكن كانت فيهم أقلية تأثرت بكتابات المفكرين وأشربت روح العصر الحديث وانضمت الى طبقات الشعب فى المطالبة بالمساواة وضحت فى سبيل هذه الدعوة بصوالحها وامتيازاتها.

وأما طبقة الفلاحين والعامة من أهل المدن فهم الذين كانت تدور عليهم رحى البؤس وتطحنهم معاصر الشقاء ؛ عجاف أهزلهم جباة الضرائب ؛ ضعاف أثقلهم تكرار وقوع القحط ؛ فكانوا

(١) كتاب تاريخ القرن التاسع عشر

يستندون الى كل يد تمتد اليهم. وصار والهذا السبب ألعوبة فى أيدى ذوى الغايات من الزعماء السياسيين الذين أنجبتهم الطبقة الوسطى.

وأما هذه الطبقة الوسطى فهى طبقة المتعلمين الذين بعد أن هيأوا نفسهم للحياة وقف الأشراف فى سبيلهم وسدت الامتيازات طريقهم فحرموا من الوظائف والمراكز التى تؤهلهم لها كفاءاتهم فاستعانوا بأهل الطبقة العامة ليكونوا عدتهم فى نشر الفتنة وقلب النظام.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الطبقة هى التى بدأت الثورة وأوقدت نارها وظلت المعركة قائمة بينها وبين أصحاب الامتيازات زمنا كان الشعب فيه خارج الميدان يكتفى بمشاهدتها والتحمس لها فما هو إلا أن خرج من دور التحمس الى دور الاشتراك الفعلى حتى طم سيله وجرف تياره جميع الطوائف الأخرى؛ فأصبح الحكم فى باريس لرعاعها ووقعت فرنسا كلها تحت سيطرة سوقتها وجهالها.